قضايا ونظرات

(الوطن والأمة والعالم)

التحيزات المعرفية في خطاب دراسات العهد القديم:

تمحور حول الذات واختزال التاريخ ونفي الآخر!

د.مازن النجار

18 أكتوبر

2015

التحيزات المعرفية في خطاب دراسات العهد القديم:
تمحور حول الذات واختزال التاريخ ونفي الآخر!

"لم تعد المسادة هي الجبل التاريخي قرب البحر الميت فقط،
بل هو جبل متنقل نحمله فوق ظهورنا أينما ذهبنا "
الكاتب الإسرائيلي أ. ب. يهوشوع

قبل نحو عقدين، أصدرت دار (روتليدج) بلندن دراسة للبروفسور (كيث وايتلام)، أستاذ ورئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة (سترلينغ) باسكتلندا، بعنوان "اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني. قدم (وايتلام) مسحاً شاملاً ونقداً غير مسبوق لمدارس البحث العلمي الغربية في دراسات العهد القديم، خاصة الألمانية والأميركية. أتاح هذا السفر القيم للباحثين تتبع مختلف الاتجاهات والفرضيات الذائعة في ذلك الحقل، ودورها في (المشروع الإمبريالي)، وتحيزاتها الكامنة والصريحة ورؤيتها المتمحورة حول الذات لتاريخ وثقافة واجتماع الآخر.

كانت قضية تفسير نشوء شعب ومملكة بني إسرائيل، والتطورات التاريخية المرتبطة بها، قد شغلت اهتمام العلماء الغربيين في مجال دراسات العهد القديم، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ابتداء من (يوليوس فلهاوزن)، رائد مدرسة نقد نصوص العهد القديم، وحتى (فون راد). استخدم هؤلاء العلماء نماذج حديثة أو معاصرة لهم في تفسير ظواهر العهد القديم وتاريخ إسرائيل التوراتية.

اهتمت اتجاهات البحث العلمي عند الأوروبيين، قبل قيام الدولة العبرية (1948) وبعده، بالبحث عن جذور الدولة القومية في تاريخ العهد القديم. وسيطر السعي وراء تلك الجذور القديمة على البحث التاريخي والأثري في فلسطين والشرق الأدنى. يلفت (كيث وايتلام) إلى الجهود الكبيرة التي بذلتها الدول القومية الحديثة في سعيها لفهم (أو تكوين) ماضيها. فالروايات الرسمية لأمة من الأمم تؤكد مظاهر معينة في الهوية القومية، كما تنكر أصوات روايات بديلة.

لكن ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل قد تشكلت في ذات سياق تشكيل وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية، وانتقل ذلك إلى الشرق الأدنى. وبعد انطلاق حركة القوميات (الأوروبية) في القرن الثامن عشر وانتصارها على غيرها من الحركات، أصبحت هي القوة السياسية المهيمنة على القرنين التاليين. فالدولة القومية (بأنظمتها ومؤسساتها وشخصياتها) قد ألقت بظلالها على دراسات العهد القديم (الحديثة) منذ بدايتها.

دراسات العهد القديم في السياق القومي الأوروبي

ترجع جذور فكرة التأريخ ذاتها، التي دعمت حركة التأريخ التوراتي، إلى الزعيم الألماني (فون بسمارك) في كفاحه لتوحيد ألمانيا. وكان للبحث عن جذور الدولة القومية وتعزيز قوتها، بما في ذلك أعمال رجالها العظماء، أهمية مركزية في القرن التاسع عشر وحتى الوقت الراهن من خلال أعمال علماء العهد القديم الكلاسيكية، مثل آلت وأولبرايت ونوت وبرايت.

ويرى أحدهم، م. نوت، تواصلا بين الماضي والحاضر يربط إسرائيل المعاصرة ببحثه عن التاريخ القديم لإسرائيل التوراتية. ورغم ادعائه أن من غير المناسب توسيع دائرة البحث بشكل يصل الماضي بالراهن، لكنه لا يقر بأن قيام الدولة القومية الحديثة هو ما شكل كثيرا من فرضيات البحث التاريخي في هذا المجال. بيد أن الافتراض السائد بوجود صلة مباشرة بين إسرائيل القديمة ودولة إسرائيل الراهنة، كما يتمثل بتصوراته حول عودة هذا الشعب إلى "وطنه" في "أرض إسرائيل القديمة،" هو ما يحدد سلفا نتيجة البحث. بل إن الاهتمام الكبير بالبحث عن جذور "إسرائيل القديمة" لإضفاء الشرعية على الدولة الحديثة، يسيطر على الخطاب التاريخي لدراسات العهد القديم، ويحجب البحث عن تاريخ المنطقة.

وربما ليس من الصدفة أن ينصب اهتمام دارسات العهد القديم (في مرحلة صعود القوميات والدولة القومية في أوروبا) على الأحداث التوراتية في الفترة الانتقالية بين أواخر العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي المبكر، والتي يغلب على الظن أنها فترة ظهور مملكة داود وسليمان، بدون إيلاء اهتمام مماثل لتاريخ الآباء (البطاركة) إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط؛ لأن هذه المرحلة القبلية البسيطة أو البدائية لا تصلح لإعادة نسجها أو بنائها في سياق نموذج الدولة القومية الذي هو المثال المهيمن على تصورات وخطاب دراسات العهد القديم الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

من ناحية أخرى، توضح أبحاث أخرى أن دراسات العهد القديم الأميركية والألمانية قد تأثرت بالسياق السياسي الذي نشأت فيه، ففرضت نماذجها الخاصة بقوة على فهمها للماضي. وقد ارتكز المنظور القومي في كتابة تاريخ إسرائيل القديمة على محاولة مماثلة سابقة في كتابة التاريخ القديم لليونان وروما، واتخذها نموذجا. وقد ولدت دراسة تلك العصور القديمة زخما ذاتي المصداقية. وعلى مدى القرن الذي تأسست فيه دراسات العهد القديم (1870–1971)، اتخذت دراسات العهد القديم مسارا معينا، كان فلهاوزن أبرز مثال عليه. فالسياق التاريخي لأعمال فلهاوزن له دلالات هامة وليست رمزية. فسيرته ونشاطه العلمي ابتدءا بحصوله على الدكتوراة سنة 1870، وتزامنت مع فترة تأسيس بسمارك الدولة الألمانية، وتوفي في 1918، السنة التي تأسست فيها الجمهورية الألمانية. وسياق حركة التأريخ، فيما يتعلق بمفهوم الدولة في القرن التاسع عشر، قد حدد مسار الأبحاث

الخاصة بتاريخ إسرائيل القديمة منذ بداية نشوء هذه الدراسات. وقد قوي الاعتقاد بأن الدولة القومية هي تعبير عن أسمى درجات الثقافة المتقدمة من الإحساس بضرورة تطوير فكرة الدولة الإسرائيلية الحديثة. تضافرت هذه العوامل مجتمعة بشكل مركب لتشكيل خطاب دراسات إسرائيل القديمة والسيطرة عليه.

يهيمن على كتابة التاريخ الإسرائيلي نموذج الكيان القومي الموحد الذي يبحث عن مساحة قومية من الأرض، ويكافح لأجل الإبقاء على هويته القومية وعلى الأرض، من خلال الأزمات التاريخية. فمفهوم الماضي يعكس تماما فهم الحاضر. والحركة الصهيونية، التي نشأت في القرن التاسع عشر بعد صعود حركة القوميات الأوروبية، قد ادعت باستمرار أن "رسالتها التاريخية" هي العودة إلى أرض خالية وصحارٍ قاحلة، تنتظر وصول التكنولوجيا الأوروبية لتصبح صالحة للسكن والازدهار. يتجلى هذا النموذج التاريخي لدى تأويل معطيات الدراسات الأركيولوجية التي تناولت "الاستيطان الإسرائيلي" بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي، وهو تأويل يفترض (مسبقا) وحدة إسرائيل وهوية خاصة بها في تلك الفترة، مما يعني في المحصلة وجود دولة قومية ناشئة بالمرتفعات الفلسطينية.

وهكذا، سيطر مفهوما القومية والإثنية بقوة على دراسات العهد القديم، كما حددا مسار العديد من الكتب الجامعية حول تاريخ إسرائيل القديم. لذلك، ينبغي أن تفهم اهتمامات دراسات العهد القديم –من حيث طبيعةُ أبحاثها التاريخية– ضمن السياق السياسي والثقافي الأوسع. كما يجب وضع خطاب دراسات العهد القديم ضمن الخطاب الاستشراقي الأشمل.

في ضوء تراكم الدراسات والمناهج النقدية والتحليلية لنصوص ومصادر العهد القديم، يخلص وايتلام إلى أن إحدى النتائج الأساسية للبحث التاريخي هي إيذانه بموت "التاريخ التوراتي"، الذي يستبدل به تدريجيا الاعتراف بالتاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته. وذلك فهم جديد لتاريخ المنطقة يزداد ابتعادا وانفصالا عن الدراسات التوارتية، كما أنه مفهوم موضوعي لتاريخ ذي قاعدة عريضة، يهتم بالاقتصاد والديمغرافية والاستيطان والأديان والأيديولوجيات الخاصة بفلسطين عموما.

نشوء إسرائيل القديمة والصراع على فلسطين المعاصرة:

يوضح تاريخ الجدل، في دراسات العهد القديم، حول نشوء إسرائيل القديمة في فلسطين بشكل جلي أن خطاب الدراسات التوراتية قد شكلته الصراعات السياسية المعاصرة المتعلقة بقضية فلسطين ومستقبلها. فالجدل حول جذور ونشوء إسرائيل القديمة يصور عموما كنقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات أساسية، وهو نقاش يرفض الاعتراف بتورطه في السياسة المعاصرة. تتيح بعض المراجعات المسحية المعاصرة مسحا عاما وتحليلا نقديا للنماذج الرئيسة، فيما يتعلق بفرضياتها المنهجية، وطريقة توظيفها للمعلومات واستنتاجاتها العامة. لكنها أخفقت في إدراك أن عمليات "بناء" إسرائيل

القديمة، التي تبدو مختلفة ظاهريا، قد عكست الأحداث الجارية في فلسطين وقت صياغة تلك الأبحاث. ورغم تظاهر خطاب الدراسات التوراتية بالاختلاف حول جذور أو نشوء إسرائيل القديمة، فإنه في الواقع استخدم اللغة المعاصرة في الصراع حول فلسطين، بل كثيرا ما تبناها.

وقد أدى النقد المتواصل لتلك النظريات والنماذج على مدى العقدين الأخيرين إلى تصدع المظهر الأكاديمي للنقاش، وأظهر المعتقدات الدينية والآراء السياسية التي شكلت مختلف نظريات إعادة بناء الماضي. والحقيقة أن الصراع حول الماضي يستبطن صراعا آخر حول الهيمنة على الحاضر. بيد أن الخطابات ما بعد الحداثية قد كشفت عن الطبيعة الذاتية للمشروع الأكاديمي، وعّرت دور مختلف مناهج البحث الأكاديمي في المشروع الاستعماري. وأدى ذلك إلى وعي بأن البحث عن إسرائيل القديمة ليس مجرد إعادة بناء موضوعية للماضي، لكنه متعلق بموضوع بالغ الأهمية يتصل بالهوية وميزان القوى المعاصرة.

وإذ تبدو فرضيات الدراسات التوراتية الألمانية والأميركية، في ظاهرها، مناقشاتٍ حول طبيعة نشوء إسرائيل وجذورها التاريخية؛ لكنها ليست نقاشا بين ادعاءات متنافسة حول فهم التاريخ الماضي، بل هو نقاش حول الهوية التي تمكن إسرائيل من المطالبة بهذا الماضي. فمختلف طرق اختلاق إسرائيل التي تفترضها النماذج التفسيرية الثلاثة تطالب جميعها بالزمان والمكان الفلسطينيين، إنه دائما تاريخ إسرائيل. ليس هناك إذن صراع حقيقي داخل خطاب الدراسات التوراتية لأنه لا يعترف لفلسطين والفلسطينيين بأي حق في ذلك الماضي.

النقد الذي صدر منذ عقدين، وقوض النماذج الرئيسة لتاريخ إسرائيل القديم بين عصر البرونز المتأخر وعصر الحديد المبكر، ركز على أمور منها: أن تلك النماذج لم تستوعب المعلومات الأثرية المتراكمة حول المنطقة؛ وأنها اعتمدت بالأساس على الروايات التوراتية في فهم وتفسير المكتشفات الأثرية والمعطيات الأخرى لدى بناء تصوراتها حول نشوء إسرائيل؛ وأنها تجاهلت إعادة بناء الماضي الفلسطيني. وتبين هذه الأمور مدى تورط هذه النماذج التفسيرية السابقة في الصراع المعاصر حول فلسطين.

وبعرض النماذج التفسيرية الثلاثة لنشوء إسرائيل القديمة، سيتبين تأثير الصراع المعاصر على فلسطين وتورطها فيه، وتأثير مسار المشروع الصهيوني الاستيطاني الإحلالي في فلسطين، منذ بدايات القرن الماضي، على صياغة ورؤية هذه النماذج.

النموذج الأول: التسلل أو الهجرة "السلمية"

أبرز منظري هذا النموذج هو الألماني آلبريخت آلت، وقد صاغه بداية في دراسة نشرت عام 1925 بعنوان "حيازة الإسرائيلي للأرض في فلسطين". بلورت هذه الدراسة ما أصبح يعرف بنموذج التسلل أو الاختراق أو الهجرة لفهم جذور إسرائيل، وهو ما تم وصفه عموما بأنه تسلل "سلمي" أو هجرة الإسرائيليين "السلمية" إلى فلسطين. غلبت هذه الفرضية على مناهج وأعمال الباحثين الألمان، مثل نوت وويبرت إضافة إلى آلت. وكانت بالغة التأثير في خطاب الدراسات التوراتية لأكثر من سبعة عقود بعد صياغتها الكلاسيكية على يد آلت. حاولت هذه الفرضية إعادة بناء الماضي، واختلاق إسرائيل، يعكس تصورات متعلقة بتاريخ فلسطين الحديث منذ عشرينات القرن الماضي، وهي بالتحديد فترة انطلاق الهجرة الصهيونية إليها.

ينطلق آلت في تفسيره لطبيعة استيطان الإسرائيليين في فلسطين أواخر العصر البرونزي من أن التغيير الاجتماعي في الماضي كان بالضرورة نتيجة قيام جماعات عرقية مختلفة، حلت محل الثقافة المحلية، بغزو المنطقة أو الهجرة إليها. أي أن فلسطين لم تكن لتشهد أي تغيير إلا بتأثير خارجي، مما يعني إنكار المؤثرات الداخلية في تاريخ المنطقة. فالمجتمعات الفلسطينية المحلية –بنظر آلت– كانت عاجزة عن إقامة تنظيم سياسي أكثر تطورا وكفاءة من المنظومات البدائية المحلية، وأن العامل الخارجي كان ضرورة. ورغم أنه لا مبرر علميًا واضحًا لافتراض آلت أن نمو الوعي القومي لا يمكن أن ينشأ محليا، وإنما ينبغي تفسيره بأنه أمر مستورد، فقد شاع هذا الافتراض في خطاب الدراسات التوراتية، وتوافق أيضا مع الفرضيات المترافقة مع الأحداث التي وقعت في فلسطين في زمن تأليف آلت لدراسته، وهي سنوات الانتداب البريطاني المبكرة في فلسطين. فبالنسبة لآلت ومعاصريه من الغربيين، خاصة السياسيين الانكليز، لم يكن بمقدور فلسطين تطوير أشكال سياسية جديدة. وبالنسبة لهؤلاء السياسيين، يجسد هذا الزعم دوافعهم وممارساتهم الاستعمارية، فقد كانوا يسيطرون على فلسطين وغيرها بصك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم، والذي أقام من دول الاستعمار أوصياء لتأهيل الشعوب غير المؤهلة لبناء نظامها السياسي، ومساعدتها على الارتقاء بمؤسساتها إلى مستوى الدولة.

بيد أن آلت يقول صراحة إنه لا يمكن أن يكون الدافع وراء إعادة التنظيم السياسي لفلسطين قد جاء من الداخل. وهو توجه ملحوظ لدى آلت في إصدار أحكام مطلقة في تفسير إخفاق وعجز سكان فلسطين المحليين على ابتكار نظم سياسية جديدة، وأنه كان ينبغي على تلك النظم المستجدة أن تأتي من الخارج. وقد ردد صدى هذه المقولات حول سكان فلسطين القديمة المؤرخون والأنثروبولوجيون الإسرائيليون المعاصرون الذين كثيرا ما ينظرون إلى المجتمع الفلسطيني في الثلاثينيات الماضية كمجتمع قبلي مفكك داخليا وعاجز عن تنظيم نفسه. وبالتالي فهو مجتمع لم يبلور شخصية قومية أو وعيًا قوميًا أو انتماءً وطنيًا يعلو فوق الخصوصيات والانتماءات الضيقة.

وهذا يأتي في سياق تبرير إنكار حقوق الفلسطينيين في تقرير المصير والاستقلال الوطني والدولة القومية.

كذلك، ينبغي الانتباه إلى أن أعمال آلبريخت آلت قد أنجزت خلال إحدى أهم الفترات الحاسمة في التاريخ الفلسطيني المعاصر؛ وهي فترة تصاعد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين في العقود المبكرة من القرن الماضي، وما ترافق معها من تطلعات ومشروعات صهيونية "استيطانية" لإقامة وطن قومي لها هناك، مما بدل جذريا من التكوين الاجتماعي والسياسي والديمغرافي للبلاد. لقد كان الخط العام لنظرية آلت في تفسير نشوء وجذور إسرائيل القديمة، هي دراسة حركة جماعات بشرية ذات شأن وتفوق على السكان المحليين (الأصليين)، تبحث عن وطن قومي لها، وينبغي أن تفهم في سياق تلك التطورات غير العادية في فلسطين في وقت قيام آلت بأبحاثه، وهي تطورات من المستبعد جدا أن لا يكون على وعي بها.

وعلى خطى آلت، أعاد نوت وويبرت إنتاج وتوكيد نموذج التسلل أو الهجرة، وتبنيا ذات الافتراضات. يفترض نوت أن من الطبيعي أن تكون روايات العهد القديم صائبة بدون أدنى شك في اعتبار أن القبائل لم تكن أصيلة في فلسطين، بل دخلتها واتخذت لها موطئ قدم في تلك "البراري والسهول المقفرة" في وقت محدد من الزمان، وأصبحت إسرائيل حقيقة نهائية ودائمة في فلسطين. كما يعتقد نوت أن هذه القبائل قد جلبت معها تراثا هاما من خارج فلسطين، مما أسهم في تشكيل عقيدة ووعي إسرائيل الذاتي أثناء تطورها في فلسطين. وكرر نوت استنتاجات آلت بأن هذه القبائل كانت شبه بدوية وتمر بعملية تحضر طويلة، وأن العملية كلها تحدث في البداية بطرق "سلمية" دون لجوء إلى القوة. وسيتكرر التركيز على "سلمية" طرق مصادرة الأرض. يستبطن هذا النموذج الزعم بأن تسلل إسرائيل إلى فلسطين لم يكن عملا من أعمال السلب، بل كان استيلاء على أرض خالية من السكان أو مناطق في فلسطين "غير مأهولة". ويستدرك ويبرت: أن حالة الصراع بين دول–المدينة الكنعانية وإسرائيل لم تحدث إلا لدى بدء المرحلة الثانية من "التوسع" الإقليمي الإسرائيلي.

ألا يذكر هذا النموذج التفسيري لجذور تاريخ إسرائيل القديمة بكثير من الاعتذاريات أو الديباجات أو الأساطير الصهيونية المؤسسة لإسرائيل المعاصرة أو المستمرة معها، ابتداء من أسطورة وحدة الشعب اليهودي أو الجماعات اليهودية في العالم واشتراكها معا في قومية يهودية واحدة؛ وأسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض؛ وأسطورة رسالة الحضارة الأوروبية الراقية التي أحضرها المهاجرون الصهاينة إلى الشرق المتخلف حضاريا؛ وأسطورة تفوق المهاجرين الصهاينة والكيان الاستيطاني على المجتمعات والكيانات المحلية والإقليمية؛ وأسطورة الاستيلاء "السلمي" على الأرض الفلسطينية بدون عنف أو عدوان؛ وأخيرا أسطورة ضرورة "التوسع" الإقليمي للوصول إلى حدود آمنة –غير محددة– لأجل استدامة عملية التوسع.

النموذج الثاني: غزو فلسطين

هذا النموذج من إنتاج المدرسة الأميركية لدراسات العهد القديم في جامعة جونز هوبكنز ببلتيمور، بقيادة وليم فوكسويل أولبرايت. وقد قدمت رواية بديلة لقيام إسرائيل القديمة في فلسطين؛ اعتبرها خطاب الدراسات التوراتية نقيضا لنموذج آلت ونوت التي افترضت التسلل أو الهجرة "السلمية". وبينما استعانت رواية آلت ونوت بسفر "القضاة" وأجزاء من سفر "يشوع"، ركز أولبرايت اهتمامه بشكل أوسع على المكتشفات الأثرية المتاحة آنذاك لإثبات قيام حملة عسكرية، قضت افتراضا على المجتمعات السكانية والتجمعات المدنية الفلسطينية. لعب "اختلاق" أولبرايت لإسرائيل القديمة دورا بالغا في دراسات العهد القديم بالقرن الماضي. وروج لهذه الأفكار عدد من خريجي مدرسة أولبرايت الذين تقلدوا مواقع أكاديمية هامة بالولايات المتحدة. اللافت في رواية أولبرايت حول إسرائيل القديمة أنها تعكس مفاهيم عصرية لتطورات حدثت في فلسطين متزامنة مع إنجاز أولبرايت لأبحاثه. وتكونت كثير من آرائه خلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات اللذين شهدا تطور مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وبلغ ذروته بقيام دولة إسرائيل عام 1948 بعد أول وأطول حرب عربية صهيونية.

يعتبر أولبرايت أن "تاريخ الديانة الإسرائيلية واليهودية من النبي موسى حتى يسوع، يبدو وكأنه يقف على ذروة 'التطور' البيولوجي، تماما مثل تطور الجنس البشري العاقل، وتعكس التطورات الأخيرة تلكؤا ثقافيا لألفي عام، ومن المؤكد أنه تلكؤ صغير بالنسبة لمئات آلاف السنين واجه فيها الإنسان صعوبات كبرى في ارتقاء مرتفعات وعرة من 'التطور' الإنساني الشاق والطويل." يرى أولبرايت أن العقيدة اليهودية والإسرائيلية ذاتها كانت ذروة 'التطور' الإنساني ومنجزات "الأمم المتحضرة"، وأن المجتمع الغربي كان يعود إلى جذوره أثناء إجراء أولبرايت لأبحاثه. وكان يقول "إن الدارس "المتعاطف" مع التاريخ الشامل للإنسان لا يمكن إلا أن تكون له إجابة واحدة: هناك بالفعل ذكاء وإرادة عبر عنهما التاريخ والطبيعة، لأن التاريخ والطبيعة هما شيء واحد." وبالنسبة له، تاريخ إسرائيل ليس فقط ملكا لعلم اللاهوت، بل إن التاريخ بكليته هو لاهوت.

اعتمد أولبرايت في روايته لتاريخ إسرائيل على إحاطته بمكتشفات زمانه الأثرية في فلسطين، وقراءته لتراث وتقاليد العهد القديم. فاعتبر أن هناك ارتباطًا مباشَرًا بين تدمير التجمعات المدنية الفلسطينية بنهاية العصر البرونزي المتأخر (1250–1050 ق.م) وقيام مستوطنات أكثر فقرا، (تميزت بتغير ثقافتها المادية، من أعمال فخارية أو عمرانية مختلفة مثلا)، وبين أحداث سفر يشوع حول الغزو الإسرائيلي لفلسطين واحتلالها. وحدد قيام قرى إسرائيل في مرتفعات فلسطين أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي، ورفض أن يكون ذلك هجرة سلمية، بل تغييرا مفاجئا

وعنفيا للأوضاع نتيجة عوامل خارجية، ما أدى إلى تدمير التجمعات المدنية الحضرية في فلسطين. واستنتج أن العبريين اندمجوا بسرعة هائلة مع أشقائهم الإسرائيليين، حتى أن الكتابات التوراتية لا تشير بالكاد إلى أي اختلاف بينهم ... لقد تمت السيطرة الإسرائيلية على الكنعانيين، إما عن طريق المعاهدات أو الغزو أو الاندماج التدريجي.

ألا ينطبق وصف أولبرايت أيضا على تجربة المستوطنين البيض (الأوروبيين) في أميركا الشمالية، حيث اندمجوا في كيان أو مشروع بشري استيطاني موحد، وتمكنوا بالغزو والمعاهدات والصهر القسري من تدمير مجتمعات الهنود الحمر والاستيلاء على بلادهم والسيطرة عليهم؟ بل ألا يستدعي ذلك أيضا التفوق الديمغرافي الذي رافق تدفق المهاجرين الصهيونيين إلى فلسطين، واندماج اليهود المحليين، بينما تمت السيطرة على السكان المحليين (عرب فلسطين) بواسطة "الغزو أو الاندماج التدريجي أو المعاهدات"، وآخرها اتفاقية معابر قطاع غزة إلى مصر، بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، التي جعلت غزة سجنا كبيرا، والسفر منها وإليها جحيما حقيقيا؟

وفي تبريره لسلب الأرض من سكان فلسطين والإبادة النتي تعرضوا لها، يقول "... هذا التقليد السامي [صفة استخدمت لصرف النظر عن الإسرائيليين أو اليهود] لم يكن أسوأ، من وجهة نظر إنسانية، من المذابح المتبادلة بين البروتستانت والكاثوليك في القرن السابع عشر...، أو إبادة الأتراك للأرمن وإبادة الروس للقرغيز في الحرب العالمية الأولى،...، ونحن الأميركيين ... قمنا، بقصد أو بدون قصد، بإبادة آلاف السكان الأصليين في كل بقعة من أمتنا العظيمة، ووضعنا البقية في معسكرات اعتقال... يبدو أن من الضروري في أحيان كثيرة اختفاء شعب ذي مستوى متدن لحد بعيد، ليحل محله شعب ذو صفات متفوقة، حيث يتحتم الوصول إلى مرحلة لا يمكن فيها للاندماج العرقي أن يستمر دون كارثة. وعندما تحدث هذه العملية، كما يجري الآن بأستراليا، لا يمكن للدوافع الإنسانية فعل الكثير، علما بأن كل عمل همجي وكل ظلم سوف ينعكس بالتأكيد على المعتدي. من حسن حظ ديانة التوحيد ومستقبل بقائها أن الإسرائيليين الذين غزوا فلسطين كانوا أقواما همجية اتسمت بطاقة بدائية وإرادة بقاء لا تلين، حيث أن الهلاك الناجم عن هذا الغزو للكنعانيين منع الاندماج الكامل لشعبين شقيقين، كان سينتج عنه حتما انحطاط القيم اليهودية إلى درجة يستحيل إصلاحها."

يعبر هذا التبرير بشكل مذهل عن عنصرية سافرة وداروينية صراعية صريحة، لكن الأهم أن هذه الآراء لم تلق أي نقد من الباحثين لدى تقييمهم لأعمال أولبرايت. يلاحظ أيضا أن وصف أولبرايت للكنعانيين بأنهم حسيون لا أخلاقيون يتطابق مع وصف المستشرقين للآخر، باعتباره نقيضا للإنسان الغربي العقلاني المثقف، مما يؤدي إلى الحط من إنسانية الشعوب المحلية وقبول مبدأ إبادتها، كما حدث لسكان أميركا الأصليين. يستبطن هذا الادعاء مقولة عنصرية أخرى حول "عبء الرجل

الأبيض"، وتفترض أن الاستعمار يساهم في تطوير الشعوب البدائية. ومن هنا خطورة أفكار أولبرايت اللاهوتية ونظرية أن الديانة اليهودية أنقذت "أخلاقها التوحيدية الراقية" بإبادة السكان المحليين.

يعتقد أولبرايت أن الصراع المتواصل بين الإسرائيليين والشعوب المحيطة أدى حتما –ولو ببطء– إلى وحدة الإسرائيليين القومية. لكنه لا يرى أن شعوبا أخرى قد تأثرت بنفس العوامل وعلى نحو مماثل، لتصل إلى مرحلة الوحدة القومية؛ بل ينفي ضمنا قدرتهم على ذلك، في انتقائية لا مبرر لها. لكن ذلك ضروري لسبب آخر. فإسرائيل –كمنبع الحضارة الغربية– تمثل كل ما هو عقلاني، بينما تمثل كنعان سكان فلسطين الأصليين، أي "الآخر اللاعقلاني"، الذي يجب استبداله في عملية التطور التي لا ترحم، والمقدرة إلهيا.

وأضفت الافتراضات التطورية اللاهوتية المهيمنة على أعمال أولبرايت تأثيرا بالغا في خطاب دراسات العهد القديم. وتتجلى في قوله "تجري معالجتنا لهذا الموضوع في خطين متوازيين: الأول، هو المنحنى التصاعدي للتطور الإنساني، وهو منحنى يصعد تارة ويهبط أخرى، ويجري أحيانا في دورات ويتأرجح أحيانا أخرى، لكنه يتعافى ويستمر في الصعود؛ والخط الثاني، هو تطور نماذج أو اشكال تاريخية فردية لكل منها حياته العضوية الخاصة، التي تصعد لتصل إلى القمة ثم تنحدر. وهذه الصورة تبرر بشكل عام وجود أكثر العقائد الدينية إيمانا بإله واحد يوجه حياة الإنسان."

في ضوء فلسفة أولبرايت للتاريخ المبنية على فكرة التقدم التطوري للكائنات، والمتماهية مع الداروينية الاجتماعية، يصبح طبيعيا أن "تحل إسرائيل محل شعوب فلسطين البدائية". وتقدم فلسفته نموذجا صراعيا، وتبريرا لاهوتيا مذهلا لنفي الآخر وإبادة شعب كامل، فيرى أنه "لا يمكننا الارتقاء روحيا إلا من خلال الكوارث والمعاناة، بعد التخلص من العقد النفسية، وذلك عن طريق 'التطهر'؛ هذا التنفيس والتطهر العميق يرافق التحولات الرئيسة. وكل فترات المعاناة الذهنية والمادية التي يتم فيها القضاء على القديم قبل ولادة الجديد، تثمر نتائج اجتماعية مختلفة وبصيرة روحانية أعمق."

النموذج الثالث: الصراع داخل فلسطين

صاغ هذا النموذج جورج مندنهول، أحد طلاب أولبرايت بجامعة جونزهوبكنز، في محاولة لتقديم تفسير بديل لجذور إسرائيل. وقد تحدى كثيرا من مسلمات نظرية آلت ونوت، ونظرية اولبرايت، وهم الذين اختلقوا إسرائيل القديمة على صورة إسرائيل المعاصرة، وهدم هذه المسلمات النظرية من أساسها. وقد نشر مندنهول نظريته في دراسة بعنوان "الغزو العبري لفلسطين" عام 1962، واعتبرت في السبعينات والثمانينات أنها الدراسة التي هزت خطاب دراسات العهد القديم فيما يخص جذور إسرائيل التاريخية، لأنها دحضت نظريتي الهجرة والغزو.

لكن نظريات مندنهول ذاتها كانت مرتبطة بأفكار أولبرايت الأساسية؛ وبالتالي لم تغادر خطاب دراسات العهد القديم، من حيث هدفه باتجاه البحث عن إسرائيل القديمة باعتبارها منبع الحضارة الغربية، مما يساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني، رغم أن جانبا مهما من أعماله يضفي شرعية على التاريخ الفلسطيني ويمنحه صوتا. كما يدرك مندنهول أن النظريات السابقة حول إسرائيل قد اختلقتها على صورة الدولة القومية في أوروبا، وأسقطت أفكارا حديثة على العالم القديم. فمفهوم القومية، كمفهوم العنصرية، لم يكن له وجود عمليا في التاريخ القديم.

يلفت مندنهول إلى أنه لم يكن هناك إدراك كاف للتعصب الاجتماعي والسياسي الذي اتسم به الباحثون المشتغلون بإعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم. واهتم بالكشف عن الفرضيات الصريحة والكامنة لنموذجي الهجرة والغزو. ورأى أنه لم يكن هناك غزو لفلسطين بأعداد هامة في بداية نظام قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة، ولا ترحيلا جذريا للسكان، بل كان الأمر استبدالا ضروريا للحكام المحليين التابعين للملوك باسم الملوك. وإجمالا، لم يكن هناك أي غزو حقيقي لفلسطين، بل يمكن تسمية ما حدث، من وجهة نظر المؤرخ العلماني، ثورة فلاحين ضد شبكة مترابطة من دول– المدينة الكنعانية.

وقد افترض مندنهول العامل الخارجي كمجموعة صغيرة دورها تحفيز جمهور الفلاحين الفلسطينيين المقهورين والمحتكرين. وبرأيه، كانت السمة الأساسية لهذه "الثورة التوراتية"، كما دعاها، هي الثورة الدينية وليست الثورة الفلاحية المحلية. ثم بدا له أن تحديد فرضية نشوء إسرائيل بـ"ثورة فلاحية" لم يحالفه التوفيق، بل كان تحديدا مضللا؛ لأن "الثورة الفلاحية" لم تكن إلا وجها ثانويا أو عرضيا من "الثورة التوراتية". ورغم تشكيكه بفكرة أن جذور إسرائيل بفلسطين كانت هجرة خارجية لشعب وافد، مما يعطي الثقافة المحلية وتاريخها مساحة غير مسبوقة؛ إلا أن توكيده على مركزية الدين الجديد الوافد من الخارج قد أحبط فرصة الخروج على النظريات السائدة لتاريخ المنطقة، إضافة إلى تركيزه على فساد الثقافة المحلية بأكثر مما فعل أستاذه أولبرايت.

تأكيد مندنهول على خصوصية إسرائيل القائمة على عقيدة كانت هي أساس الحضارة الغربية، يتيح له تبني ودعم الافتراض الشائع بوجود انفصال بين إسرائيل وثقافة فلسطين المحلية؛ كما أنه يعكس الافتراض الشائع بوجود استمرارية متصلة بين إسرائيل القديمة والعالم الغربي الحديث، باعتبارهما مجتمعين قائمين على فكرة التوحيد، بخلاف الشرق الأدنى القديم الذي كان يؤمن بتعدد الآلهة. ولأن مندنهول يرى ثقافة سكان فلسطين الأصليين لا أخلاقية وفاسدة، فهم ببساطة لا حق لهم في الأرض وفقا لهذا المفهوم، بينما يرى احتلال إسرائيل لفلسطين تأكيدا للهدية الإلهية لإسرائيل. ثم يتناول فروقا أخرى بين إسرائيل وكنعان تتردد في في الخطاب المعاصر بهدف إضفاء الشرعية على إسرائيل المعاصرة مقابل فشل سكان فلسطين الأصليين، فيقول "الاهتمام بالمحافظة على السلام في

مساحة واسعة من الأرض كان من القضايا الهامة لدى العقيدة الإسرائيلية المبكرة، وهو ما كان متباينا مع كنعان في فترة العصر البرونزي المتأخر." إذن، إسرائيل وحدها كان بإمكانها المحافظة على السلام في هذه المنطقة الواسعة لأن النظام المحلي كان يمثل استغلال نخب المدن للفلاحين. لذلك، فالمجتمع الكنعاني (الفلسطيني) لم يكن بمقدوره تنظيم اجتماعي متحضر.

تركيز مندنهول العرضي وغير الموفق، كما يقول، على الثورة الفلاحية ألقى ظلالا من الغموض على التمييز الجذري الذي أقامه بين إسرائيل والثقافة المحلية. ولكنه كتلميذ لأولبرايت، يعبر مندنهول تعبيرا صريحا عن فرضيات كامنة في خطاب دراسات العهد القديم تتعلق (بالاختلاق الأكاديمي لإسرائيل القديمة). من ذلك، تمييز مندنهول الجذري بين العقيدة الإسرائيلية والأنظمة الاجتماعية السياسية الفاسدة التي حكمت سكان فلسطين الأصليين، والذي يعكس تصوير إسرائيل المعاصرة باعتبارها تطورا جديدا وجذريا في المنطقة. فجذور إسرائيل تعود للحضارة الأوروبية والديمقراطية، بحيث استطاعت استغلال هذه الأرض التي أهملها سكانها المحليون (الكسالى والمنقسمون على أنفسهم) زمنا طويلا. هل يذكر هذا التمثيل مرة أخرى باعتذاريات الاستيطان الصهيوني حول تخلف المنطقة ورسالة التقدم الأوروبي التي يحملها المشروع الصهيوني؟

من ناحية أخرى، يتحدث مندنهول عن أسس المجتمع الديني المسمى "إسرائيل"، باعتباره طوباويا قائما على علاقات أخلاقية بين أفراده. أي إن اختلاق مندنهول لإسرائيل القديمة يضاهي تطلعات المهاجرين الصهاينة الأوائل لإنشاء مجتمع جديد وعادل. أما الثورة التوراتية، التي هي حجر الزاوية للحضارة الغربية، فهي التي تحل محل النظام الوثني الفاسق. والحركة الدينية التي تحقق ذلك التغيير، جاءت من الخارج بواسطة مجموعة صغيرة من الإسرائيليين الفارين من فرعون مصر. ألا يستدعي ذلك صورة المهاجرين اليهود الناجين من الهولوكوست النازي والقادمين إلى فلسطين لإقامة مجتمع "جديد وآمن ومتقدم"؟ وكذلك صورة موجة الهجرة الصهيونية الثانية (1904-1914) التي جاءت بعشرات آلاف المهاجرين الروس المنتمين إلى الحركة الاشتراكية والذين أنشأوا المزارع الجماعية (الكيبوتسيم)، وبلوروا نموذج رواد الاستيطان الزراعي (الحالوتسيم)؟

لذلك، ليس غريبا أن يلفت بعض الباحثين اليهود اليساريين في الدراسات التوراتية إلى أن فرضيات مندنهول حول نظرية الثورة الفلاحية لبدايات إسرائيل كان لها قوة بلاغية واضحة في الستينات والسبعينيات الماضية التي شهدت انتصار حركات التحرر الوطني في العالم الثالث وصعود اليسار. بيد أن هؤلاء الباحثين الذين دأبوا على تسييس إعادة بناء الماضي، لم يبذلوا أي جهد للربط بين هذه النظرية وبين أكثر حركات التحرر الوطني وضوحا، أي كفاح الفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلي. وتبقى المسألة خرساء لأن خطاب الدراسات التوراتية المهيمن قد أسكت (تماما وبإحكام) أي فكرة لوجود تاريخ فلسطيني أو تعبير عن تقرير المصير.

خلاصة

نشأ خطاب دراسات العهد القديم (الحديثة) في سياق صعود القوميات الأوروبية، حيث كانت الدولة القومية الحديثة، خاصة في ألمانيا، تبحث عن جذورها البنيوية والحضارية في ثنايا العهد القديم، وتلقي بظلالها على خطابه ودراساته الحديثة. وتشكلت الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل في سياق تشكيل وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية. وقصد الاهتمام الكبير بالبحث عن جذور "إسرائيل القديمة" إلى إضفاء الشرعية على الدولة الحديثة. فسيطر ذلك على الخطاب التاريخي لدراسات العهد القديم، وحجب البحث عن تاريخ المنطقة.

كانت الحاجة إلى البحث عن إسرائيل القديمة، باعتبارها الجذر الرئيس للحضارة الغربية، هي قوة دفع دراسات العهد القديم؛ وازدادت هذه الحاجة نظرا لمطالب اللاهوت الغربي في بحثه عن جذور خصوصيته في المجتمع الذي أنتج التوراة العبرية، وقد تعزز ذلك التوجه مع قيام إسرائيل المعاصرة، فأدى لنشوء أبحاث أكاديمية إسرائيلية تبحث، في الماضي البعيد، عن هوية وشرعية دولتها القومية.

تعكس هذه النماذج الثلاثة أيديولوجيات مؤلفيها ومواقفهم السياسية ومواقعهم من المشروع الصهيوني في فلسطين المعاصرة، وتعكس مراحل تطوره المختلفة التي تزامنت مع صياغة كل نموذج. فنموذج التسلل والهجرة السلمية قد صاغه آلت في العشرينات من القرن الماضي، عندما كان الهجرات الصهيونية المبكرة تترى باتجاه فلسطين، وتركز على حيازة الأرض بطرق غير عسكرية، وتنشئ المستعمرات الزراعية والمشروعات الصناعية والمؤسسات التعليمية والاجتماعية والنقابية التي ستشكل البنية التحتية للمجتمع اليهودي في فلسطين، وكانت الوكالة اليهودية هي الأداة الرئيسية للمشروع الصهيوني. أما نموذج الغزو، فقد تم صياغته أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات عندما كانت الإمبرياليات الأوروبية تسيطر على معظم أرجاء المعمورة، ومع بداية تشكيل المنظمات اليهودية العسكرية وشبه العسكرية، وتم تشكيل الفيلق اليهودي الذي خاض الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، وأصبح لاحقا نواة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية. أما نموذج الصراع الاجتماعي داخل فلسطين فقد تزامن مع صعود أفكار اليسار والصراع الطبقي والتغيير الثوري عالميا وسيطرة اليسار الصهيوني والاقتصاد الاشتراكي على نظام الحكم في إسرائيل منذ قيامها.

يلاحظ أن جميع النماذج التي عرضتها هذه المقاربة قد صاغت تفسيراتها لجذور إسرائيل القديمة في ضوء مفاهيم ونماذج تفسيرية حديثة. وقد أضفى خطاب دراسات العهد القديم هالة من الموضوعية على مقولاته ونظرياته، بينما تلعب عوامل أخرى لا واعية وغير موضوعية دورا حاسما في إعادة بناء الماضي المتخيل لإسرائيل القديمة. وقد طغت الأحداث المعاصرة والصراع على فلسطين بوضوح على خطاب وتأويلات هذه الدراسات. ورغم التقييم والدراسات النقدية التي سددت ضربات قوية أطاحت بكثير من فرضيات ونظريات واستنباطات هذا الخطاب المتحيز، استمر بعض

فرضياته وتصوراته الرئيسية الكامنة والتي كانت أساس اختلاق إسرائيل القديمة في فترة الانتقال بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي المبكر.

قد يكون بنيان هذه النماذج قد انهار، لكن ما يتم بناؤه في مكانها كثيرا ما يعتمد الأسس الكامنة ذاتها.

(*) Whitelam, Keith, *The Invention of Ancient Israel*, *The Silencing of Palestinian History*, London & New York: Routledge, 1996.

وصدرت له ترجمتان عربيتان، إحداها بعنوان "اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني" عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت، رقم 249، سبتمبر/أيلول، 1999، ترجمة د. سحر الهنيدي، مراجعة د. فؤاد زكريا؛ وصدرت الأخرى بعنوان "تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني"، عن قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2000، ترجمة ممدوح عدوان، مراجعة د. زياد منى.